إشكالية الهويـة وصراع الأنا والآخر في الروايـة النسـائيـة العربيـة

د : فاطمة مختاري.
جامعة عمار ثليجي – الأغواط –الجزائر

تاريخ الإرسال: 2019-05-24 تاريخ القبول: 2019-05-28 تاريخ النشر: 2019-05-31

الملخص بالعربية:

تحوّلت الكتابة الرّوائية النّسائية إلى ظاهرة أدبية أصبحت محط اهتمام القرّاء والنّقاد بالأساس لما تمتلكه من إشكالية جدلية في الأوساط الثقافية والأدبية العربية، وهو ما يصدق على الإبداع الأدبي النسائي العربي عامة ، والروائي منه خاصة، حيث ما فتئت الرواية كجنس أدبي تغري الكاتبات العربيات بالتجريب. ومن أهم الأسئلة التي شكّلت محور المتن الحكائي في الرواية النسائية العربية سؤال الخصوصية والهوية في بعديها الذاتي والجماعي، ومنه تعلن الهوية حضورها المتميّز والخاّص داخل تفاصيل الكّتابة الروائية النسائية ، وقد شكّل سؤال الهوية ـ بصفته سؤالا رئيسيا ـ يفرضه التساؤل عن الذات وبعثها كجزء من بعث الأمة، وهو سؤال يتمثل في حضور الآخر الغربي بما يترتب على هذا الحضور من مساس قوي بالهوية العربية. إن مفهوم الأنا في علاقته بالآخر يرتكز على تبني المفهوم القومي، حيث أن هذا الأخير الذي يحول الأرض إلى أرض سياسية، ثم يربط بين الحق على الأرض وبين وجود الأمة قد تجاوز الموقف الرافض والمتعاون وأضحى الآخر ببعده السياسي عنصرا من عناصر مشروع الهداية الجديد والقائم على نفي الخصومة واستبدال مفهوم الهوية بتعددية متلاحقة أو متزامنة لهويات مختلفة في ظل طوباوية المسعى إلى مساواة لا يمكن أن تحقق إلا عبر فرضها وليس استجدائها ، فلا يمكن أن ينظر إليك كندّ دون

أن تفرض أنت على اللآخر علاقة الندّية، لقد عولج هذا الموضوع كثيرا من خلال الكتّاب العرب، وستحاول هذه الورقة البحثية تناوله من وجهة نظر نسائية من خلال مختارات روائية نسائية عربية وتسليط الضوء على محاور هذه الإشكالية وعلى خطابها المتحقق.

الكلمات المفتاحية: المرأة ، الكتّابة ، النسائية ، الصراع ، الأنا ، الآخر ، الغرب ، السرد.

The problem of identity and the struggle of the ego and the other in the Arab women's novel.

Abstract:

Women's fiction is become a literary phenomenon, and it is become a major concern of readers and critics. This is because these writings have important problems in the Arab cultural milieu, where the novel as a literary genre tempts Arab writers to experiment. Among the most important questions that have formed a great interest in the Arab women's novel is the question of privacy and identity through the self and collective dimensions, and from this foundation, the identity declares its distinctive and special presence within the details of the female narrative writing. The question of identity and self was preoccupied with the concerns of the nation, In the writings and the Arab identity. The concept of the ego in relation to the other is based on the adoption of the national concept, since this national dimension is the existence of the nation on earth of the important political principles, but the data now indicate that the existence of the other dimension of the political element of the project of the new guidance, which is based on denial of rivalry, The concept of identity in a variety of different identities, and this in the face of very great difficulties, cannot impose yourself on others unless you strengthen your personality, this subject has been addressed a lot through the Arab writers, and we will try in this paper to address this issue through a women's perspective on the study of the texts of Arab women The highlight of the axes of this problem and the discourse achieved in reality.

Keywords: *writing, women, conflict, ego, other, West, narrative*

تعرف الهُوّية على أنها التماثل المطلق، أو أنهّا الجوهر الذّي لا يتغيّر، وفي الكتابة العربية يصبح سؤال الهوية بحثا في المتغيّرات التي تُدمّر التطابق والتمَاثل والتَصالح مع الذّات وتُخلخل الهوّية القارّة، وتَقذف بها في سماوات التيه فقد سعت المرأة منذ الوهلة الأولى إلى اثبات الذّات من خلال الاختلاف والمغايرة، أي من خلال تدمير الذات وتدمير الوحدة والتآلف .

إنَّ الهوِّية بمفهومها السّوسيولوجي مرُكب مبني ومعرَّف به اجتماعيا، وذلك من دضلالات الذاَّت المستمدّة من عضوية الفرد في فئات كالطبقة والعرق والدّيانة والأمة .. إلخ، يتصرف المرء من خلالها انطلاقا من وضعية معيَّنة أو على ضوء مجموعة من القيم والمعايير والتَصورات المسبقة [1]، وهذا يعني أن الهُوّية " ممارسة وسلوك قبل أن تكون تصورا ذهنيا ومن خلال الممارسة تتكون الهوية وتثري"[2].

يُعد البحث في الهوية " بَحثا معرفيا أو بالأحرى هو صنعا لهذه الهُوّية أو متابعة لصنعها باستمرار على ضوء المُشتركات التي تُوحِّد الأمة، أما البحث عن الهوِّية فبحث إيديولوجي غالبا، إنَّه انحياز .. اختيار موقف .. إيديولوجيا "[3]، وهذا يعني أن دراسة الخطاب النسوي في الرواية ستفترض جدلية البحث عن الهُويّةِ لا فيها.

بَدأت المرأة الكَاتبة في نهاية القرن المنصرم ومطلع الألفية الثالثة الخوض في مسار كتَابي واجتراح خطاب أدبي صارم ومختلف، إنهّ خطاب النقد الذّاتي والبحث عن الهوّية الحقيقية أي البحث عن الذّات المتصالحة مع نفسها البعيدة عن الانفعال وعن المؤثرات الخارجية الضيّقة، والبحث عن الهويّة التي تعرّضت للهزات.

في فترة السبعينيات وقبلها لم تكن الكتابة لدى المرأة تعبر عن الذّات النسوية، ولا عن الهوّية النسائية لأنها كانت منغمسة في الذات الكلية، أي أن المرأة كانت تبحث عن موطئ قدم لها منتهجة سبيل المهادنة والتماهي، لذلك برزت المرأة في العمل الصحفي وفي المحاماة وفي تدبير الشأن السياسي والنقابي وفي الإثارة الأدبية، ولم تكن هذه السبل قادرة على خلق التميز والتفرد والإثراء المعرفي، فاختارت المرأة المبدعة ميدان الألغام وساحة المواجهة الحقيقية مع الذات والعالم والتقاليد

والأعراف بالإبداع ومن خلال نسيجه المحكم حققت التميز والاختلاف لأن الإبداع الحق ميدان المواجهة، وإبراز الذات والهوّية والخصوصية والتفرّد[4].

لذلك تعرّضت المرأة للمضايقة والإشاعة والتشهير أكثر من أيّ امرأة في ميادين الحياة المدنية العامة، ولم يزد ذلك المرأة الكاتبة إلا إصرارا على التّعرية، وبالتالي كتّابة المختلف وتهشيم الصورة الثابتة والساكنة في الأذهان، فكانت كتّاباتها مفعمة بعوالم التجريب.

لقد اختارت المرأة الكاتبة الرواية مجالا للسَّرد، فكانت حقلا خصبا لتمثل الهُّوية، وكانت لها القدرة العجيبة على وصف الواقع ونقده وعكس قضاياه ومعاناة الذات فيه، وصراعها مع الآخرين، فهي الفن الأدبي الذي يجنحُ غالبا إلى التَّهذيب والإصلاح ويقدّم العلاج الأمثل للتغلب على حُلّ المشاكل الاجتماعية.

إنَ كلَّ سرد يستوعب ويتطلب ثُنائية الأنا والآخر " فكلُّ سرد روائي يتضمن بالضرورة أنا وآخر، سواء كان السارد أنا أو آخر، أو كان السارد افتراضيا آخر خَارج هاذين القطبين، فالتماس هو الذي يمنحُ السَّرد وجوده ويجعله سردا، سواء كان هذا التَّماس توافقيا في حدّه الأقصى.....أو كان تنافريا عبر مختلف أشكال الحروب وعمليات الخصومة والقتل ..وما إلى ذلك " [5].

يُمثِّل الآخر الطرف المقابل للذَّات، ووجوده ضرورة يتحقَق بها وجود الأنا، وبحضوره تُدرك الذَّات الاختلاف والتَمايز الذي تفتقد إليه، والآخر هُو المختلف في الجنس والإنتماء الدِّيني أو الفكري أو العرقي، ويمثّل الآخر انقساما وانفصالا عن الذَّات فهو ليس موضوعا لواقعه فحسب أو نموذجا واحدا، "وكُلُّ شخص هو آخر بالنسبة لأي شخص على وجه الأرض بغض النظر عن أشكال حضوره سواء أكان شريكا أو مُسالما أو غازَيا أو مُحتلا، وبغضّ النظر عن العلاقة التي تجمعه بالأنا سواء كانت علاقة صراع أو احترام، إلا أنَّه لا يمكن إنكار الدور الذي يلعبه الآخر بشأن تصور الأنا لنفسها، فهو يمثل بشكل مفارق موضوع إغراء ومصدر حيطة وحذر في نفس الوقت"[6] .

إنَّ الهُوِّية السردية تؤسس للذَّات والآخر من خلال جعلها لحياتهما قصَّة مقروءة من قبل الآخرين الذين بدورهم لهم ذات السرد والقراءة، وهكذا تصبح الهُوِّية المنبثقة في العالم الروائي

موضوع سرد متبدل من ذات الحاكي إلى القراء الآخرين ؛ أي موضوع قراءات متعددة لقراء متنوعين، ويعتقد "بول ريكور" بما يسميه الهُوِّية السَّردية أي صورة الذات التي لا تحقق إلاَّ بالسرد فيقول : " لاَ رَيب أنَّ إشكالية التَّماسك والبقاء أو بعبارة وجيزة إشكالية الهُوية توجد هناك في السرد، وقد ارتفعت إلى مستوى جديد من الوضوح والإعضال أيضا، إذ يؤلف السرد الخواص الدائمة لشخصية ما هي ما يمكن أن يسميه المرء هويته السّضردية وذلك عبر بناء نوع من الهُوِّية المتحركة في السرد وخلق هُويته "[7].

إن السرد يمتلك قدرة كبيرة على تمثيل الاعتقاد والمذاهب والأفكار والتعبير عن الأنساق المختلفة ذات العلاقة بالإنسان ،" فالإنسان عن طريق السرد يشكّل صورة عن نفسه ومجتمعه وتاريخه وقيمه وموقعه وعن الآخر وكلِّ ما يتصل به "[8].

ويتميز السَّرد بالشمولية والرحابة والقدرة على تسريد مكوّنات الذّات وعناصر الهوّية، فالأمر دائما في حاجة إلى السرد لبناء كيانها وتحريرها من كافة أشكال الهيمنة عبر ما يتيحه التخييل واستراتجياته من آفاق غير محدودة قد تؤسس لكتابة روائية عربية تنطلق من وعي خاص بالذات والعلم .

من المواضيع التي انصبَّت أَغلب الإبداعات العربية على تصويرها، مسألة اللقاء الحضاري مع الغرب في صورة علاقة الأنا الفردية والجمعية بالآخر المتُفوق والمهيمن، حيث رصدت أبعادها المعرفية والاجتماعية والفنية خاصة وأن الحضارة الغربية تشكل مركزية مستقطبة لا يمكن لأي أمَّة أو دولة أن تكون بمنأى عن هذا الاستقطاب، ممَّا نوعَّ وعدَّد صور العلاقات المنُعكسة في الأَثر الإبداعي، فبدت في بعض الأحيان في صورة الصراع مع الغرب وأحيانا أخرى في صور اللقاء الحضاري المؤطر بعلاقات المثاقفة في صورتها الكولونيالية، حيث يسير المغلوب في أثر غالبه محاولا تمثل حضارته وتقدُّمه، وهنا يكون اللقاء على محك الاختبار بين حضارة وثقافة تفرض نفسها بكل الوسائل، وحضارة وهوِّية ذات خصوصية تجد نفسها في موقع التهميش أو الانحدار أو النفي، وهنا يكون السجال الحضاري بشكل عام على أشدّه في المتخيلات الروائية بوصفها حاملا معرفيا علاوة على أدبيتها وأثرها الجمالي.

لَقد توقّف الخطاب العربي أمام سؤال الهويّة بصفته سؤالا رئيسيا يفرضه التساؤل عن الذات وبعثها كجزء من بعث الأمة، وهو سؤال يتمثل في حضور الآخر الغربي بما يترتب على هذا الحضور من مساس قوي بالهويّة العربية حيث أن هذا المفهوم في فكر ما بعد الحداثة مهدد بالزوال، ذلك أن الحداثة اعتمدت في تعريفها للهويّة على مفهوم التاريخ كأساس معرفي بوصفه يكرس العناصر الثابتة المتراكمة عبر العصور والتي تشكل درعا للحقيقة حقيقة الأنا والآخر في عبورهما التاريخي للمتغير وحيث يقتسم الأنا والآخر قدرا متساويا من مشاعر الخوف من بعضهما بعضا، بعد أن تمتع الآخر الغربي طوال حقبة المد الاستعماري بامتياز تقويض الآخر[9].

إنَّ هذا الموضوع المُعالج من خلال المتخيّلات الروائية موضوع يكاد يكون رجاليا، فأغلب الإبداعات الروائية التي وضعت على محك اختبار العلاقة مع الآخر هي روايات كتبها مبدعون رجال، و ستتطرق المداخلة من خلال عدد من مختارات من الكتابات الروائية النسائية إلى تسليط الضوء على محاور هذه الإشكالية وعلى خطابها المتحقِّق والذِّي وضع مفهوم التحرر في المجتمعات العربية في علاقة مباشرة مع الآخر المتفوق تسمى المثاقفة .

رَأَت الدراسات النّقدية في تناولها للكتابات التي صورت اللقاء الحضاري الغالب أن البطل في هذه الروايات هو بطل متردد،" فهو مقبل على التكنولوجيا، متوجس من نتائجها الاجتماعية و يبدو أكثر انسجاما مع متطلبات العصر، ولكنه أشدّ انفصاما عن الذات وأشد تناقضا في الرُؤيا فالبرجوازية العربية لم تشبع الواقع تهويما إيديولوجيا وإنتاجيا فحسب، بل ولم تُشكّل من جديد وجداننا الإقطاعي القديم لهذا نجد أن هذا الوجدان جاء حذرا ومتوجّسا من التكنولوجيا، يطلبها كقوة فيزيقية تطيح بضعفه ودونيته القومية، ولكنه يرفضها كثورة ستفرط بحميمية العلاقات الاجتماعية والقيم المثالية"[10].

إلاَّ أنَّ غزو المستعمر روائيا "قد تم بأسلوب غزو مضاد قائم على ادّعاء الفحولة، منجزا نوعا من الحقد الحضاري حيث لم تتبين الملامح الإنسانية المشتركة حين يستسلم الأبطال لهوس الكراهية والحقد، وبآلية سوء فهم جاهزة أعاقت التواصل أو التفاهم الإنساني بعيدا عن الأحقاد

والكراهية والتمييز العنصري ،حيث أثر الموروث الثقافي والحضاري في تشكيل وعي كل من الأنا والآخر"[11]

جَاَء أبطال اللّقاء الحضاري هَذا " نخبويون يتحدثون بثقافة عالية، ويتحدّثون عن أئمة الفكر السياسي ويستبدلون الواقع بالحلم في سبيل التوازن وقد تراءى لهم هذا اللِّقاء في صورة غزو جنسي حيث يتم الثأر من الحضارة الغربية وفق طقس جنسي"[12]، وهنا تكون الذكورة الجنسية بديلا عن التخلف السياسي والتراجع الحضاري أمام الآخر المتفوق الغالب، والمسألة تصبح أكثر وضوحا وواقعية حين تجد الذات نفسها في مواجهة مع الآخر وتبدأ في ممارسة عمليتي الإقصاء والاستيعاب اللتين يفرضهما الاختلاف .

والسُؤال الذّي يطرح نفسه هو كيف صور اللقاء الحضاري مع الآخر في الرواية النسوية ؟ وهل هناك اختلاف أو خصوصية في هذا التصوير تميزها عن الصورة التي رسمها الرجل الكاتب عن هذا اللقاء؟ هذا ما ستحاول المداخلة أن تجيب عليه في هذا المحور.

يُمَثّلُ الغرب في عدد من النصوص الروائية النسائية العربية " حيث يجسد من خلال بعديه الواقعي والرمزي، بؤرة التجربة أو عنصرا فاعلا من عناصرها أو الفضاء / المتنفس لعديد من الشخصيات المتخيلة والنسائية منها بوجه خاص، حيث تقيم معه أكثر من علاقة تختلف طبيعتها باختلاف نوعية التجربة التي تمارسها، وما تنتهي إليه من مصير، وما تتركه من أثر "[13].

في رِوَاية "ذاكرة الجسد" تكشف الروائية على لسان بطلها "خالد طوبال" عن الوجه البشع للمستعمر الغربي (الفرنسي) من خلال ما كان يمارسه من أشكال عنف وقهر، وما ألحقه بالجزائر من خراب ودمار تروي الذات/ الكاتبة وقائع منها على لسان شخصية خالد " وكان سجن (الكديا) وقتها ككل سجون الشرق الجزائري يعاني من فائض رجولة، إثر مظاهرات 8 ماي 1945 التي قدمت فيها قسنطينة وسطيف وضواحيها، أول عربون للثورة متمثلا في دفعة أولى من عدّة آلاف من الشهداء، سقطوا في مظاهرة واحد وعشرات الآلاف من المساجين الذين ضاقت بهم الزنزانات.."[14]، فضلا عن إشراك فرنسا للجزائريين في الحرب العالمية الأولى.

اِرتبط الغَرب في وجهة نظر الآخر بالعلم والتّقدم والحضارة فكان محطة علمية لطلاب العالم يتوجهون إليه لإكمال دراساتهم العليا، وهو ما نجده في عدة نصوص، ففي "ذاكرة الجسد" تتوجه البطلة "حياة " إلى باريس للدراسة وفي نص "زهرة الصبار " يهاجر "أحمد" إلى فرنسا أيضا لإكمال دراسته أين يتفوق هنالك باستحقاق وجدارة .

كَمَا تم تناول الآخر / الغرب في أكثر من نص روائي نسوي كمرادف للاستعمار بما يحمله هذا المصطلح من معاني العنف والدمار، وجسدت الكاتبات صور هذا الاستعمار في نصوصهن الروائية في شكل إدانة لهذا الغرب الذي يدّعي احترام الآخر، ويحمل شعارات حقوق الإنسان، ففي رواية "عام الفيل" لليلى أبو زيد تنضم البطلة زهرة إلى صفوف المقاومة من أجل تحرير المغرب وتنقل مشهدا دمويا بقي راسخا إلى الأبد في ذهنها، تقول : " ... أذكر المناسبة واليوم، يوم مذبحة الدار البيضاء لا ينسى، يوم أسود ما ذكرته إلا وجدت تملا في جسدي، رأيتهم.. جنود اللفيف الأجنبي يخرجون من ثكنة قريبة من بيتنا ويطلقون نيران رشاشاتهم على المارة، ما أطول ما عشنا وتلك الطلقات في أذني وأمام عيني رجال ونساء وأطفال يتساقطون "[15].

وقَد غَدت صُورة الغرب مشوّشة وضبابية في ذهن الفرد العربي عموما نتيجة العنف الذي مارسه الاستعمار الغربي على المنطقة العربية، فغذّى النفوس بحقد دفين يخالطه كثير من الحذر، تقول "زهرة" وهي تتأمل " وولتر" الألماني الجنسية زوج فاطمة المغربية: " .. وأنا أراقبه أجد له عندي شعورا غريبا مودة يخالطها رواسب حقب من النفور وسوء المعرفة منذ صغري ثبت عندي مما سمعت ورأيت أن النصارى جنس آخر حتى كنت أسأل نفسي عما تراهم يأكلون" [16]، كما ارتبطت صورة الغرب في الذهن بالرذيلة والانحطاط الأخلاقي وهو ما كشفت عنه " سوسن عبد الله" وهي تنقل لنا صورة عن عالم الحانات في الغرب (بون) التي كانت ترتادها.

وَتبدُو رواية "الميراث" لسحر خليفة متمثّلة لمختلف إشكاليات العلاقة مع الآخر مختبرة حدودها مستجيبة لإحداثيات هذه العلاقة وانسجامها مع معطيات المرحلة التاريخية والمتمثلة بمساجلة الآخر الغربي في أمريكا ومساجلة الآخر الإسرائيلي في فلسطين، بحيث تبدو الذات مأزومة ومهددة بضياع الهوية ، ولا تجد أمامها طريقة للاحتماء أو الانكفاء وجماعاتها المنصهرة

المنفعلة التي تحاول أن توجد خطابا جماهيريا واحدا حتى لو غلب عليه الانفعالية والعاطفية في سبيل حماية الذات من التفتت والتشظي وبالتالي الضياع .

إِنَّ تقديم الرِوّاية " لزينة" النَموذج النِّسائي المُلتبس بين التكوين الغربي والّشرقي كونها وُلدت من أب فلسطيني وأم أمريكية في أمريكا، أدّى ذلك إلى استمرار مفهوم الالتباس في الهُوِية والمعاش الذي يجبر زينة على التوافق مع ازدواجية انتمائها[17].

تَعُود زينة إلى وطنها فارَّة من نصفها الأمريكي إلى وطن أبيها لتستسلم ميراثه " وهي في معيشتها في أمريكا قد دفعت ثمن معاناتها بين مجتمع متحرر لا يلتزم بالتقاليد المتوارثة من السلف إلى الخلف ... وبين تقاليد أسرتها في الحفاظ على شرف البنات حتى في أمريكا، ذلك أن الخروج على منظومة القيم هذه ستجعل الجميع يُجمع على أن الرجال أولياء أمور البنات ليسوا رجالا أو ما عادوا كذلك"[18]، فقيم المجتمعات المحافظة تصطدم في قلب المجتمع الغربي غير المعترف بها أصلا، فالمرأة التي تهرب من تمزقها واغترابها في المجتمع الأمريكي تهرب من تاريخ عبوديتها واستلابها في المجتمع / هذه المرأة الفارة من غربتها وتمزقها وتاريخ اغتصابها والتي نصفها أمريكي ونصفها عربي تجد بانتظارها عندما تعود إلى وطنها اغتصابا جديدا في فلسطين .

تَعُود زينة إلى الوطن، وطن الهوية، حيث والدها والأهل والحلم، ولكن يتأكد لها زيف أحلامها وأوهامها وتتفاقم أزمتها، فلا تزداد هويتها إلا التباسا، إذ لا تعثر إلا على فراغ ومأساة وضياع ولا وطن ولا هوية تقول: " جئت إلى الضفة بحثا عنه، بحثا عنهم، بحثا عن وجهي في الغربة" [19].

وَلاَ تختلف بطلة الكَاتبة العراقية بتول الخضيري في رواية " كم بدت السماء قريبة" عن سابقتها فأزمتها هي أزمة زينة، معه اختلاف التفاصيل والأرض، إذ تدور أحداث الرواية في زعفرانية العراق وليس في الغرب كما كان الحال دائما، فهي مولودة من أم بريطانية وأب عراقي، تضطر الوالدة للعيش في العراق نظرا لظروف عمل زوجها في العطور والروائح والألوان، يتزامن وجودهم مع ظروف الحرب مع إيران وحصار العراق اقتصاديا.

وَأَزمة البطلة هي والدتها التي تصر على تعليم ابنتها البيانو إلى جانب رقص الباليه، كما تصّر على منعها من الاختلاط بأبناء الفقراء القذرين فرؤوسهم مليئة بالقمل وطعامهم يحمل الأمراض، ولكن الصغيرة لا تجد متعتها وذاتها – وبدعم من أبيها – إلا مع خدوجة ومع الصّغار الأشقياء بألعابهم وشقاوتهم، أكثر من ذلك ، فإنّ والدها يحرص كثيرا ألا تخالط لغتها العربية ولهجتها العراقية أيَّ لَكنَة أجنبية أو انجليزية "[20] وتكون نتيجة المعركة هذه .. " أن أذهب إلى المدرسة كما تريد أمي وأن أواصل ترددي على المزرعة كما يريد أبي فكان أن أدى خلافهما، إلى اختلاطي بالعالمين ما عدا البيت الذي كان بحد ذاته عالمين " [21].

فَالخلاف كَان بين الأب العراقي والأم البريطانية فوق أرض عربية، لكنه مع ذلك ظل يشكل صراع الهوية وأزمتها بالنسبة لابنتيهما، مما يعني أن انقسام الذات العربية على نفسها وأزمتها في صراعها لا يقتصر على متغيرات المكان وإنما هو أزمتنا (نحن) الحضارية القابعة في نفوسنا وثقافتنا.

وَبالمقابل فالآخر / الغرب يحمل في مخيلته صورا نمطية عن الشرق أو العرب التي يربطها بعوالم ألف ليلة وليلة عوالم الشرق الساحرة بلياليها الحالمة المفعمة بالشهوات والمرتبطة بها بالضرورة، وهو ما صرحت به زوجة "أحمد" الفرنسية عند زيارتها لتونس معلقة " ... رقصكم شهواني، حتى إلى أبعد الحدود، علي بابا مازال يسبي النساء ويضاجعهن في مغارته الفيروزية" [22].

الهوُيّة تعني المساواة والبحث عن الإدراك إنها الشيء الذي ربما حققته "منى" الفتاة السعودية في رواية "وهج من رماد السنين"[23]عندما قرَّرت السفر إلى بلاد الغرب للدراسة بينما حبيبها أمين يرفض تلك الفكرة على الرغم من أنه تلقى تعليمه في الغرب، وحقَّقت منى تَفوُّقا في دراستها وأثبتت للأوربيين أنّ الفتاة السعودية ليست هامشية " ومن هنا تؤكد الرواية على سمات وخصائص العديد من الفتيات الشرقيات، خاصة من المجتمع السعودي اللاَّئي أظهرن استقلالية ودفاعا عن مَبادئهن غير متأثرات بالبيئة الثقافية المغايرة عن ثقافتهن " [24]، لقد أثبتت منى خلال دراستها بالغرب مدى اعتمادها على نفسها والتزامها بالعمل الجاد والتقت ببعض الفتيات الشرقيات اللَّاتي يدرسن ويعملن بالخارج من أجل تحقيق ذاتهن والاعتراف بهن داخل المجتمع، ومن بين

هؤلاء الفتيات من تمد يد العون لأسرهن في الوطن مثل دينا الفتاة السورية [25]، لقد كان الحزم و الإصرار لتحقيق الهوية والشخصية، ومن ثم الاستقلالية خلال فترة تعليم تلك الشريحة من الفتيات في الغرب حلية في الروايات النسائية وهذا مؤشر يفيد بأن تعليم المرأة هو ضمان لمكانتها الاجتماعية المتزايدة .

وبَعدَ حصولها على درجتها العلمية من الخارج، أصبحت منى أكثر ثقة، وبدأت تفكر في المواقف والوضع العالمي، وبدأت تنتقد الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي الذين كانا السبب في نظرها في تدمير البلدان العربية، وكذلك المجتمع السعودي الذي يتعامل بتشدد مع المواقف، وطالبت بمرونة النظريات الإسلامية لتتماشى مع العصر الحديث، ولهذا طلبت منى من المجتمع أن يركز على التعليم والاهتمام به من أجل بناء مزيد من المساواة في المجتمع [26].

إنَّ الهوّية بناء يتشكَّل ويتطَور كلَّما دعت الحاجة إلى ذلك وهي سعي مستمر نحو التجديد المثمر والتّحوّل البناء والإضافة الحقيقة التي تكسبها القوة و تحميها من التلاشي خاصّة بعد أن تحولت في يومنا هذا إلى هدف تهدّده رياح العولمة العاتية، فإذا كانت الذات الخائفة من الإِمّحاء والانسحاق تُؤثِرُ التقوقع على نفسها وترفض الآخر، فإنّ المثقّف الحقيقي عليه أن يتجاوز هذه الرؤية المغلقة ويبتعد عن التعامل مع مكونات هويته القومية بصفتها جوهرا ما ورائيا أو عنصرا نقيّا أو بنية ثابتة أو حقيقة متعالية أو شعارا مقدّسا، وبذلك يخرجها من إطارها الجامد، وينظر إليها بصفتها شرطا يمكن تغييره أو معطى ينبغي صنعه وتحويله[27].

تُثَار مسألة الهُوّية الثقافية وصعوبة الاندماج مع الآخر في العديد من الكتابات العربية النسائية، ففي رواية " إنها لندن يا عزيزي" لحنان الشيخ تجد البطلة " لميس " صعوبة في التعايش مع الآخر، إذ شكلت لغتها العربية وملامحها الشرقية عائقا حال دون اندماجها، ورغم محاولتها تعلم الانجليزية ومعرفة تفاصيلها ودقائقها، إلا أن شعورها بالتهميش ظل يلاحقها حيث كشف اللحن في نطق لغة الآخر أصولها العربية، ورغم ذلك لا تجد مفرا من التواصل مع الآخر فهي مجبرة على ذلك، تقول " هذا البلد سيصبح بلدي لم أعد أعيش فيه حياة مؤقتة، أولا أتيت إلى لندن لتوي، أسكن في فندق، ثانيا : البحث عن شقة للإيجار ...إتقان اللغة الإنجليزية ..ثالثا البحث عن عمل..

التعرف على أصدقاء إنجليز...علي التوقف عن الأكل العربي... وإزالة الكحل عن العين .."[28]، تتأكد تحولات الذات / الهوية في شخصية " لميس " من خلالي عمليتي الاستيعاب والإقصاء، فقد دأبت كي تكون انجليزية من خلال إتقان لغة الآخر، والاندماج في مجتمعه، والتعرف على الأصدقاء، وتناول المأكولات الإنجليزية واكتساب ثقافته الشعبية، وعاداته وتقاليده، ولعل شخصية " لميس " شأنها شأن كل شخوص الرواية، نموذج عربي مأزوم يبحث عن الخلاص عبر علاقته بالآخر، لقد اكتشفت لميس أن تجربتها مع الآخر محض وهم، حصيلته الاغتراب والتهميش، وأن من الصعوبة تجاوز الذات/ الهوية كلية، فالبحث عن الخلاص لا يبدأ من الآخر، من ثقافته، وإنما من فهم الذات لما تريده وتسعى لتحقيقه [29].

في رِوَاية الكَاتبة حميدة نعنع " الوطن في العينين " أبرزت الكاتبة موضوع التاريخ الخفي للمرأة المهاجرة والهجرة هنا لا تعني البعد الجسدي عن الوطن فقط بل تعني الاغتراب عن كل شيء في الوطن، ف"نادية" بطلة الرواية امرأة عربية تعيش في باريس في أعقاب تاريخ من النضال مع المقاومة الفلسطينية نفذت خلاله عمليات جريئة بما فيها اختطاف الطائرات التي شاركت في إحدى عملياتها رغم تباين قناعاتها ووجهة نظرها حول هذا الموضوع مع زملائها وقادتها، تطرد في نهاية المطاف من تنظيمها السياسي، تلجأ لعمليات تجميل كي تغير شكلها الذي بات معروفا ،محاولة الابتعاد والعيش في باريس بمنأى عن كل الهموم السياسية [30].

تَتَبدَّى أوّل خيوط اللقاء مع الآخر في هذه الرواية بالدافع إلى العيش في فرنسا، فرارا من الوطن لظروف سياسية وأمنية تستوجب ذلك من مناضلة قديمة تحاول أن تنسى برفقة مناضل فرنسي يحاول هو أيضا أن ينسى، "فرانك الفرنسي الذي سجن وحقق معه وكان من الممكن أن يسجن مدى الحياة لأنه يتبنى فكرا ونضالا ضد الفاشية، وكان يعتقد ككل الطيبين بإمكانية ثورة البروليتاريا في أوروبا" [31].

وَفي عَلاقة الأنَا بالآخر تكشف نادية مركزية الفكر الغربي أيضا والذي يحول الشعوب المستعمرة والمهمّشة إلى دوائر تدور في فلكه، فهذا فرانك الفرنسي المُنَّظر الثوري الذي يُحاضر عن المعاناة والظلم اللذين يتعرض لهما الناس في العالم الثالث يناضل من موطنه الآمن في باريس، وهو

متأكد من احترام حقوقه الإنسانية حيث يمكنه التمتع بثمار النظام الديمقراطي، في حين أن البطلة العربية نادية تعيش صراع وتناقضات المنظمات السياسية التي تتعلق بالشعارات البراقة، والجادلات الإيديولوجية التي عفا عليها الزمن وصراع الآخر المتفوق ك"فرانك" والذي يصوغ نظرياته عن العالم الثالث تضيق الخيارات أمام نادية ولا تجد إلا أن تحمل هويتها الوطنية في ذهنها وقلبها وتحاول حماية هذه الهوية من الأذى الداخلي والخارجي على حد سواء[32]، كما تعترف الروائية أن خطاب الرجولة السائد لم يغير من نظرته إلى المرأة، وخاصة المرأة التي خرجت عن السائد وقدمت التضحيات من أجل أن تكوّن صورة مغايرة للمرأة النمطية التي درجت الرواية على تصويرها .

وهُنا دَفعت المرأة الثمن غاليا لتغيير ملامح وجهها كي تستطيع الاستمرار في العيش وكأنها تتطهر من مرحلة اغتراب لتدخل مرحلة جديدة، إنها المرأة الانتقالية الرافضة لسلطة الرجل وللتقاليد الاجتماعية الضاغطة التي تكبل حريتها، وهي تمتلك وعيا وثقافة جعلاها ترفض ما هو مفروض عليها، ولذلك تتحول نفس المرأة إلى ساحة صراع عنيف بين ما هو متجذر في أعماق المجتمع وبين القيم البديلة في محاولة دائبة لتحويل العلاقة بينها وبين الرجل إلى علاقة فهم واستيعاب [33].

ولَم تَغفِل الرواية الإشارة إلى ارتهان الحرّية والتحرر بتحرّر الفكر والجسد فيما يتعلق بالمرأة العربية التي قسّمها الفكر الأبوي إلى جسد وعقل ينفصل أحدهما عن الآخر" معتمدا في ذلك على ثنائية الداخل والخارج، حيث ينحصر وجود المرأة داخل حدود وجدران البيت لرعاية الأسرة والأمومة، بينما يكون الخارج مجال فعالية الرجل وميدان نشاطه، كما أن مفهوم العقل مفهوم مؤسس لمفهوم الحرّية في كل تجلياتها، إن على مستوى المعرفة أو على مستوى الفعل بوصفه أعدل الأشياء قسمة بين البشر من أجل إحلال قيم المعرفة والعقل لتكون معيارا موضوعيا لتحديد قيمة الإنسان اجتماعيا ودينيا ولتأكيد حريّة الإرادة الإنسانية"[34].

إنَّ التغيُّر التحرُّري الذِّي يطال المرأة يطال حتى جسدها، وربما كانت هذه المسألة من سمات الكتّابة النسائية فالكتّابة الذكورية لا تشير إلى تحرُّر الجسد باعتباره مساحة من الحُرّية محررة

ابتداء، ويبدو الجسد في نصوص اللقاء الحضاري مع الغرب معاد لا موضوعيا لمسألة الشعور بالحرية، ويتخذ بعدا معرفيا ثقافيا تقول نادية لفرانك " هكذا نلتقي في الأمسيات الباردة لقاء الأمسيات الباردة، هو الاتصال الحقيقي بين رجل وامرأة، به يكتشفان حاجة جسديهما للدفء وكفيهما للمط" [35].

إنَّ نادية في عيشها المجُتمعي في فرنسا تحـاول أن تُقيم الأواصر التي تقرب وجهة النظر بين الشرق والغرب وأن توحّد بعض القضايا المشتركة في سبيل تجاوز الهوة العميقة بين الشرَّق والغرب، إلاَّ أنَّ الكاتبة تكشف عقم اللِّقاء مع الغرب وتراه فاشلا، وبأنه يظلُّ بين فكّي القوة والخضوع، وهو الموضوع الآخر الذي اختارت له الكاتبة بطلتها الأولى " نادية" في روايتها التالية الموسومة بـ " من يجرؤ على الشوق "[36] والتي رأت فيها أن موضوع اللقاء الحضاري مع الغرب إشكالية تتجدد في كل مرحلة بتجدد معطياتها، حيث تعكس الروايات سجالها وتضعها في أطروحتها الأخلاقية والجمالية على محك الاختبار من جديد.

إنَّ تَمثلات عَلاقة الأنا بالآخر في الرواية النسائية لم تخرج عن إطار تمثُّلات هذه العلاقة في الرواية العربية بعامة من حيث حضور الآخر في صورته الغالبة، ومن حيث اتسام العلاقة بقوانين المثاقفة التي تفرض تحولات عميقة هيكلية في بنى وأنماط التعبير، تُدخل الآخر كمكون من مكونات الذات في جدلها مع الآخر.

لَقَد عَالجت روايات نسويّة أُخرى علاقاتها بالآخر من وجهة نظر مختلفة، حيث تناولت بعض الكاتبات في رواياتهن مواضيع تَتناول الصِّراع بين المرأة/ الأنا، والرجل/ الآخر، ورأت بعضهن أن مصدر شقائهن وتعاستهن هو الرجل/ الآخر، وأصبح يقينهن أنهَّن لن تستطعن الحياة في ظل وجود الآخَر، فلكي يكون لهن دور قررن إقصاء الآخر/الرجل بلعبة سردية بدت أحيانا متكلفة وأحيانا أخرى ساذجة وفي أحايين كثيرة متسلطة ،" إن فهمنا لخطاب هذا النمط من الكتّابة السردية يمكن أن نلجه من باب النظر إلى العلاقة بين الرجل والمرأة على أنها لعبة إقصائية، تسعى إلى التغييب من أجل كسب الهيمنة والحضور تأسيسا على مبدأ فرضية أن الخطاب قوّة منتجة للاختلاف طمعا في الهيمنة"[37].

إِنَّ رواية المرأةِ العربيةِ نمط من الكتّاباتِ السَّردية التّي اتخَّذت من الفن السردي عامة منطلقا للتعبير عن جدل العَلاقة بين الذات والواقع، محاولة الفرار من الكائن إلى واقع ينبغي ان يكون حتى لو في المتخيل السردي، فهي أشبه بشخصية شهرزاد في حكايات ألف ليلة وليلة تريد أن تهرب من كونها ضحية إلى الخلاص من واقعها الذي يحكمه الرجل، فهو خيبة أملها وهو شريكها المستبد وقدرها الذي تهرب منه.

لَقَد تحوَّلت بعض الكتّابات الإبداعية للمرأة إلى ذات ناقمة تفترض سوء الرجل مقدما، لكن المرأة التي تستخدم السرد في هذه الروايات الناقمة على الرجل ليست هي شهرزاد التي أشاعت روح التسامح ونقلت الرجل من التدمير إلى التسامح، ومن القتل إلى العفو بفعل السرد بل إنها امرأة واقعية عانت من تسلط ثقافة الرجل، وحان لها الوقت لتأخذ بعض أدواته لتقهره بها[38]، نلحظ ذلك في رواية " آدم يا سيدي " لأمل الشطا عندما أقصت الرجل /حمزة من حبكة الرواية معترفة له بدوره الشهم، لكن عليه أن يعتزل الحضور ويتقاعد عن دوره، وأن تحضر المرأة ويغيب هو، لأن من أساسيات الخطاب استبعاد الثنائي وتأكيد فرضية الإقصاء، لذا جاء موت حمزة فعلا حاسما ليخلو مسرح الأحداث للأم الأرملة لتنهض بدور كان يقوم بها زوجها لفترة طويلة، ولعل أول صدمة واجهتها إقرارها أنها لم تكن تعرف العالم الذي عاشت فيه سنوات طويلة، لأن حمزة/الرجل كان هناك دائما يقوم بدوره، أما هي فقد ظلت تابعة في شرطها البيولوجي القائم على العطاء دون المشاركة والمبادرة، أما بعد إقصاء حمزة فقد نجحت الأم الأرملة في تربية أبنائها دون اللجوء إلى التسلط والاستبداد الذي كان يمارسه الوالد/حمزة.

عَلَى أَنَّ الكتّابة الإبداعية النِّسائية عامة وفي جنس الرِّواية خاصَّة، ما هي إلا سعي من قبل المرأة/الكاتبة لإثبات ذاتها الأنثوية وإضفاء المعنى على وجودها الذي تهيمن عليه مظاهر الاستلاب التي تعمق اغترابها وشعورها بالغبن والحيف لما يمارس عليها من أشكال القهر تعمد إلى التصدي لها وتحديها عبر فنون من العبارة، ثم إن هذه الكتّابة تمثل سبيلها إلى معرفة الذات الحقيقية والوصول إلى جوهرها الإنساني بلا زيف ولا تجمل ... إن المرأة الكاتبة تتوق إلى تكريس مقومات هويتها بتبني قضايا المرأة وتقديم البدائل الممكنة[39].

عَلَى أنَّ هذا المَوضُوع يظلُّ سُؤالا تتعدد أجوبته وتتفتَّح عَلَى مزيد منَ البحثِ والاستقصاء.

الهوامش:

[1] – أنظر إرفن جميل، **الاستشراق جنسيا**، ترجمة عدنان حسن، شركة قدمس للنشر، بيروت، ط1 2003، ص 79

[2] – تركي الحمد **الثقافة العربية في عصر العولمة**، دار الساقي، بيروت ط3 2003، ص 19.

[3] – المرجع نفسه، ص 19.

[4] محمد معتصم، **بناء الحكاية والشخصية في الخطاب الروائي النسائي العربي**، دار الأمان، الرباط،2007، ص 21، 22.

[5] صلاح صالح، **سرد الآخر**، المركز الثقافي العربي، ط1 المغرب، 2003، ص 54 نقلا عن مازية حاج علي الهوية وسرد الآخر في روايات غسان كنفاني، أطروحة دكتوراه، جامعة بسكرة ،2017/2016، ص 33.

[6] محمد الخباز، **صورة الآخر في شعر المتنبي**، المؤسسة العربية للنشر، لبنان ،ط1، 2009، ص 23.

[7] بول ريكور، **الهوية والسرد**، تر حاتم الورفلي، دار التنوير، بيروت، 2009، ص 35.

[8] أحمد فرشوح، **الرد بالكتابة**، ضمن كتاب **الهوية والتخيل في الرواية الجزائرية**، رابطة أهل القلم، سطيف، الجزائر، ط1، 2008، ص 86.

[9] – أنظر رزان محمود إبراهيم، **خطاب النهضة و التقدم في الرواية العربية المعاصرة**، دار الشروق، بيروت، 1995 ص 226.

[10] – فراج عفيف، **الحرية في أدب المرأة** ،مؤسسة الأبحاث العربية،بيروت،1980 ص34.

[11] – أنظر إبراهيم السعافين، **تحولات السرد**، دراسات في الرواية العربية، دار الشروق، بيروت، ط1، 1996.

[12] – جورج طرابيشي، **شرق وغرب، رجولة وأنوثة**، دار الطليعة، بيروت، 1978، ص150.

[13] – بوشوشة بن جمعة، **الرواية النسائية المغاربية** ،منشورات سعيدان، تونس، ط1، 2003 ص 93.

[14] – أحلام مستغانمي، **ذاكرة الجسد**، دار الآداب، بيروت، ط1، 1988 ص 36.

[15] – ليلى أبوزيد، **عام الفيل** ،مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1983، ص35.

[16] – المصدر نفسه، ص 64.

[17] – أنظر سحر خليفة، **الميراث**، دار الآداب، بيروت، 1997، ص 53.

[18] – المصدر نفسه، ص 15.

[19] – المصدر نفسه، ص 11.

[20] – بتول خضيري، **كم بدت السماء قريبة**، المؤسسة العربية، بيروت 1999، ص 13.

[21] – **المصدر السابق** ص 13.

[22] – علياء التابعي، **زهرة الصبار**، دار الجنوب للنشر، المغرب،1986، ص 149.

[23] – صفية عنبر، **وهج من رماد السنين** ،الدار العربية للمطبوعات، بيروت، 1988.

[24] – عبد الرحمن محمد الوهابي، **الرواية النسائية السعودية والمتغيرات الثقافية**، دار العلم والإيمان، القاهرة، د.ت، ص 138 .

[25] – أنظر صفية عنبر، **وهج من رماد السنين**، ص 147.7.

[26] – أنظر المصدر **السابق** ص 128-130.

[27] ينظر هنية جوادي، **السرد و تشكّل الهوية**، مجلة المخبر، العدد الثالث عشر 2017، ص 88.

[28] . حنان الشيخ، **إنها لندن يا عزيزي**، دار الآداب ،بيروت . 2003، ص 31.

[29] نهال مهيدات، **الآخر في الرواية النسائية العربية**، عالم الكتب الحديثة، عمان، 2008،ص50.

[30]– أنظر حميدة نعنع، **الوطن في العينين**، دار الآداب، بيروت، ط2، ،1986،ص2 وما بعدها.

[31] – المصدر نفسه ، ص 112.

[32] – أنظر المصدر نفسه، ص 166.

[33] – أنظر رزان محمود إبراهيم، **خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة**، أمانة عمان الأردن، 2001، ص 182.

[34] – حامد أبو زيد، **دوائر الخوف، قراءة في خطاب المرأة**، المركز الثقافي العربي، بيروت،1991 ص 138.

[35] – حميدة نعنع، **الوطن في العينين**، ص 13.

[36] – حميدة نعنع، **من يجرؤ على الشوق**، دار الآداب .، بيروت، ط1، 1989.

[37] ــ حسن النعمي، **الخطاب والخطاب المضاد، الإقصاء والإحلال**، ملتقى جماعة حوار، جدّة، 1428 هـ، ص 674.

[38] ـ المرجع نفسه ض 675.

[39] – أنظر بوشوشة بن جمعة، **الرواية النسائية المغاربية**، ص 104.